نظام الإمامة في عمان
(١٨٢٤-١٩١٣م)

إعداد الطالب
عبد العزيز صالح احمد

ترجع إرهاصات نظام الإمامة في عمان إلى القرن الثاني الهجري، القرن الثامن الميلادي، حيث قام الأباضيون بإنشاء هذا النظام هناك، وكان يتم اختيار من يتولى أمر الإمامة عن طريق الانتخاب من بين أهل العلم والصلاح والتقوى، وكان انتخاب الإمام في عمان مستمراً حتى النصف الأول من القرن السادس الهجري، النصف الأول من القرن الثاني عشر الميلادي، ثم في الفترات التالية أصبح منصب الإمامة فارغا لم يهتم به أحد لفترات طويلة غير متعاقبة . حتى عام ١٠٣٤هـ / ١٦٢٤م وقع الاختيار على رجل من اليعاربة* وهو ناصر بن مرشد اليعربي ليتولى أمر الإمامة وظل الأئمة في عمان يُختارون من هذه القبيلة ما يزيد على قرن من الزمان وحتى قيام دولة أل بوسعيد عام ١٧٤١م .(١)

وعندما قامت الدولة البوسعيدية في عمان ١١٥٧ هـ / ١٧٤٤ م، ضعف أمر الإمامة ولم يهتم من تولى عرش السلطنة من هذه الأسرة باتخاذ لقب إمام إلا في عهد أحمد بن سعيد الذي تولى الحكم في الفترة ما بين عامي ١١٥٧ – ١١٩٨ هـ / ١٧٤٤ – ١٧٨٣ م، وفي عهد ابنه سعيد بن أحمد الذي تولى الحكم من بعده بين عامي ١١٩٨ – ١٢١٨ هـ / ١٧٨٣ – ١٨٠٣ م، وبوفاة هذه الأخير لم يسع أي سلطان من البوسعيديين (ممن توارثوا السلطة) إلى اتخاذ لقب إمام، ولم يحاول أي منهم أن يظفر بتأييد ديني له .(٢)

وفي عام ١٢٨٥ هـ / ١٨٦٧ م استولى عزان بن قيس البوسعيدي على الحكم في عمان بعد ثورة القبائل العمانية، وأعلن نفسه إماماً على عمان واصطبغت فترة حكمه التي استمرت حتى عام ١٢٨٧ هـ / ١٨٧١م بالصبغة الإسلامية الأباضية؛ إلا أن حكومة الهند البريطانية عملت على إسقاطه، فتم لها ذلك. ومنذ ذلك التاريخ لم تجر محاولة لإعادة نظام الإمامة إلا عندما قامت ثورة القبائل الأباضية عام ١٣٣١هـ / ١٩١٣م.

حيث تولى حكم عمان في تلك الأثناء السلطان فيصل بن تركي، وخلال فترة حكمه حدث صراع شديد بين فرنسا وبريطانيا على المصالح في عمان، وحاول السلطان فيصل بن تركي تحرير نفسه من القيود البريطانية فلجأ للتقرب من فرنسا، وأما فى الداخل، فقد حقق السلطان نجاحًا نسبيًا فى الفترة من ١٩٠٢، ويرجع الفضل فى هذا النجاح إلى جهود سليمان بن سويلم وزير السلطان، وإلى إنقسام الأباضية على أنفسهم، الأمر الذى دفع السلطان إلى إقامة علاقات ودية مع الشيخ عيسى بن صالح زعيم الحرث سكان المنطقة الشرقية والذى كان يبحث بدوره عن زعيم يؤيده فى نزاعه مع الشيخ حمد بن ناصر زعيم بنى ريام وفى عام ١٩٠٧، إبان زيارة سليمان بن سويلم للشيخ عيسى بن

صالح فى " القابل" بالشرقية، تم إغتيال سليمان إبان مروره فى منطقة السيابيين، وجاء إغتياله نتيجة تذمر القبائل العمانية منه لتدخله فى شئونهم الداخلية. ولقد سبب هذا الاغتيال متاعب للسلطان، فأرسل حملة تأديبية إلى " وادى سمايل " لتأديب السيابيين، ورغم ماحققته الحملة من إجراءات إنتقامية إلا أنها لم تساهم فى تعزيز مركز السلطان لفرض سيطرته على المنطقة الداخلية من عمان، وبعدها دب التفكك فى حكومة السلطان نتيجة لاغتيال أحد أبرز رجالاتهما، وبدأ الانهيار عام ١٩١٠، نظرًا لسوء الأحوال المالية للحكومة، وإنخفاض الجمارك بعد الحصار البريطانى لشواطىء الخليج لمنع إعادة شخص الأسلحة منه إلى الخارج، وإنقاذ للحالة المالية للسلطان قدمت بريطانيا قرضًا ماليًا بدون فوائد عام ١٩١١ "(٣)..

أسباب الثورة الاباضية (١٩١٣م):

وفى عام ١٩١٢، إنفجرت أزمة السلاح فى عمان، الأمر الذى غير خريطة عمان السياسية حتى عام ١٩٥٥، ومرجع ذلك أن السلطان وافق عام ١٩١٢، على مشروع بريطانى بإنشاء مركز لخزن الزخيرة وتوزيعها فى عمان، وكان البريطانيون منذ عام ١٨٩٨، يضغطون على السلطان بغرض فرض حظر أشد على تجارة الأسلحة، كما أرغمت بريطانيا رعاياها من الهنود على عدم الاشتراك فى أى صفقة سلاح، وتبع ذلك تحول الأرباح إلى المؤسسات الفرنسية والألمانية التى تقوم ببيع السلاح، وجاءت موافقة السلطان على الإرادة البريطانية أن حرمت ميزانية حكومته من ٤٠٠٠ دولار شهريًا لجمارك السلاح، وفى مقابل هذه الخسارة زادت بريطانيا المخصصات المالية التى كانت تدفعها إلى السلطان نيابة عن زنجبار إلى ١٠٠٠٠٠ روبية كنوع من التعويض، ووافق السلطان بناء على تعليمات بريطانيا بفرض قيود على هذه التجارة وإذا كانت هذه القيود التى قام بها السلطان على تجارة السلاح، قد وضعت نهاية لعمليات تهريب الأسلحة فى الخليج، فقد كان ذلك فى مصلحة بريطانيا، إلا أنها فى ذات الوقت قد عجلت بإنفجار أخطر أزمة واجهت حكومة مسقط "(٤)..

ازدادت الهيمنة البريطانية على حكومة مسقط منذ توقيع اتفاقية الصداقة والتجارة بين سلطنة عمان وبريطانيا عام ١٣٠٨هـ / ١٨٩١ م، وخضع السلطان العماني فيصل بن تركي* لما طلبته منه بريطانيا، وهذا ما أدى إلى استياء كثير من القبائل العمانية التي رأت أن السلطان تعاون مع حكومة الهند البريطانية فيما يتعارض مع مصالح الشعب العماني، ويمكن هنا من إجمال الأسباب التي أدت إلى ثورة القبائل العمانية وقيام نظام الإمامة الأباضية:

١- أن كثيراً من الأباضيين لم يتقبلو نظام الحكم في السلطنة القائم على الوراثة، وليس الانتخاب، وهذا ما يتعارض مع الإسلام .(٥)

٢- أثار خضوع السلطان العماني للحكومة البريطانية، فيما طلبته منه فيما يتعلق بمكافحة تجارتي الأسلحة والرقيق غضب هذه القبائل لاسيما بعد أن أدى ذلك إلى التضييق على تجارتهم وتدمير سفنهم

٣- تزايد استغلال بريطانيا لموارد عمان الداخلية، لاسيما بعد أن التزم السلطان بمنح إحدى الشركات البريطانية امتياز البحث عن الأسفنج في مياه عمان الإقليمية، وقد اعتبر الأباضيون أن عمل هذه الشركة منافساً لهم في كسب قوتهم من البحر.

٤- انتشار الجمعيات التنصيرية في عمان، وتشجيع السلطان فيصل بن تركي لهم، لاسيما المنصرين الأمريكيين الذين وجدوا في عمان مرتعاً خصباً لنشر النصرانية.

٥- أخذ علماء الأباضية في عمان على السلطان أنه لم يتمسك بتعاليم الإسلام، وبما يمليه عليه المذهب الأباضي. (٦)

انقسام عمان إلى سلطنه وإمامة:

في عام ١٩١٣، اجتمعت مجموعة من العلماء ورؤساء القبائل في مدينة تنوف، | وكان لهذا الاجتماع هدف وحيد وهو انتخاب إمام. فاقترح عبدالله السالمي ترشيح سالم بن راشد الخروصي ولكن الخروصي الذي لم يكن يتوقع هذا الاقتراح حاول أن يعتذر بالقول إنه أتي لإعطاء بيعته لا لتلقي البيعة. إلا أنه لم يكن من حقه ولا في مقدوره، لا من وجهة نظر مذهبية ولا من حيث التقاليد، أن يعتذر عن هذا الترشيح. فرفض الترشيح كان يعني رفض الثقة التي وضعها العلماء فيه، لا سيما وأن مثل هذا الرفض كان يمكن أن يعني أيضا انقسام صفوف المسلمين (٧)

ولم يكن للخروصي سليل الأسرة التي أعطت عبر التاريخ العديد، علماء وقضاة وأئمة، سوى الموافقة. فتمت له البيعة إذا في مسجد الشريعة في المدينة نفسها، طبقا للمراسم التقليدية. وقد شارك فيها مجموع العلماء وبعض رؤساء القبائل، وقد قام العالم عامر بن خميس بن مسعود المالكي، والعالم عبدالله بن محمد بن زريق الأزكوي، بقراءة البيعة واتخاذ ما تستبعه من تدابير، وكانت هذه البيعة بيعة الظهور، وهكذا أعلنت الإمامة الجديدة وأعلنت نزوى، المركز الإباضي الروحي، عاصمة لها.(٨)

كان برنامج إمامة الخروصي يقوم على أربع نقاط: إسقاط نظام السلطنة، إنهاء الوجود والنفوذ البريطانيين، العمل على توحيد البلاد، وأخيرًا إعادة إقامة الإمامة على كل البلاد، ويلاحظ في كل الإمامات الإباضية، في التاريخ الحديث، برامج مماثلة تقريبة كانت خصوصيتها الوحيدة في الزمان والسياق.(٩)

بعد شهر من هذه البيعة تقريبا وصل الشيخ عيسى بن صالح الحارثي مصحوبًا ببعض رؤساء القبائل الهناوية إلى تنوف، وهي منطقة تتبع للقبائل الغافرية، وبايع الإمام الجديد بفضل السالمي والخروصي، أمكن حصول اتفاق، بعد خمسين سنة من النزاعات، بين رئيسي القبائل المتنازعة، الغافرية والهناوية. وهكذا أمنت الثورة أحد أهم شروط نجاحها: وحدتها، وعلى هذا النحو بدا أن المجتمع العماني قد استعاد وحدته حتى قبل إقامة الإمامة. كذلك يمكن القول إن هذه الثورة حظيت بظروف كانت غائبة في عصر عزان بن قيس.(١٠)

ولكن الغريب هو أن عيسى بن صالح الحارثي اقترح، بعد إعطائه بيعته، وساطة بين الإمام والسلطان فيصل. وكان يمكن لهذا الاقتراح غير المتوقع أبدا أن يزرع، على حد قول محمد السالمي، التخاذل بين الإمامين في الوقت الذي لم تكن الثورة إلا في طورها الأول؛ ولكن هذا الاقتراح رفض رفضا قاطعة شكلا ومضمونا، من جانب العلماء؛ وأثار أكثر من ذلك، السخط والدهشة معا. (١١)

وطبقا للتقليد، أرسل الإمام الخروصي، في هذه الأثناء رسالة رسمية إلى السلطان يعلمه فيها بقيام الإمامة، ويطلب فيها منه إنهاء النفوذ البريطاني وتطبيق الشريعة الإسلامية في البلاد. بعبارة أخرى يطلب منه التنازل عن الحكم. وبصورة موازية لذلك، أرسل الإمام مبعوثين عبر البلاد، ورسائل لرؤساء القبائل يخبرهم فيها بقيام الإمامة ويطلب بيعتهم. وقد رد معظم الزعماء إيجابية ومنحوه بيعتهم. وفي زمن نصير، أعلنت كافة المدن الرئيسية، تقريبا، ولاءها له. ولكن بعض المدن التي بقيت تحت نفوذ سلطة حكم مسقط لم تفعل. ويلاحظ التقرير البريطاني الذي يلخص الوضع، أن عصيان قبائل غمان تحت قيادة إمام تنوف، سالم بن راشد الخروصي، يغطي على كل الأحداث الأخرى التي شهدتها عمان تلك السنة. وينسب هذا التقرير اندلاع العصيان، إلى الدعاية التي بثها الشيخ الإباضي الرئيسي، عبدالله بن حميد السالمي*.

أيا يكن، فلقد تجلى دعم عام للإمام، لا سيما في المدن التي بايعت. وبحق كان على البريطانيين أن يقلقوا لا سيما وأن شخصيات قريبة من السلطان، مثل سيف بن سلطان البوسعيدي وأخيه حمود، التجأت إلى الإمام وأعطته بيعتها، بل طلبت إليه أن يصفح عنها. (١٢)

* اليعاربة: أسرة عربية حكمت عمان وجزء من شرق أفريقية تنتمي إلى الأزد من قحطان، أول إمام منهم ناصر بن سلطان اليعربي تولى الحكم عام ١٠٣٤ هـ/ ١٦٢٤ م، وعمل على إخراج البرتغاليين من عمان. للتفصيل: حميد بن محمد بن رزيق، الفتح المبين في سيرة السادة البوسعيديين، تحقيق عبدالمنعم عامر وآخر، ط ٤، وزارة التراث القومي والثقافة في عمان، مسقط، ١٤١٥ هـ/ ١٩٩٤ م، ص ٥٣ ؛ سرحان بن سعيد الأزكوري، تاريخ عمان، تحقيق عبدالمجيد القيسي، ط ٢، وزارة التراث القومي والثقافة في عمان، مسقط، ١٤٠٦ هـ/ ١٩٨٦ م، ص ٩٧ وما بعدها .

١- شركة الزيت العربية الأمريكية، عمان والساحل الجنوبي للخليج الفارسي، ط ١، مطبعة مصر، القاهرة،١٩٥٢ م، ص١٥ – ١٧.

٢- المرجع السابق ، ص١٨

٣- وجيه أبو حمزة :الصراع بين السلطة والإمامة في عمان وموقف بريطانيا منها، ص٢٨.

٤- وجيه أبو حمزة :الصراع بين السلطة والإمامة في عمان وموقف بريطانيا منها، ص٢٩.

* فيصل بن تركي هو ثاني أبناء تركي بن سعيد بن سلطان، عمل والياً في عهد والده وتولى الحكم بعد وفاته مباشرة عام ١٣٠٥ هـ/ ١٨٨٨ م، وصفه السالمي بأنه أحسن إخوته سياسة وحزماً، ووصفه لوريمر بأنه كان نزاعاً إلى الكسل والتسويف مسرفاً في نفقاته الشخصية ،توفي ١٣٣١ هـ/ ١٩١٣ م. للتفصيل: نور الدين عبدالله بن محمد السالمي، تحفة الأعيان بسيرة أهل عمان، د. ط، مكتبة الإمام نور الدين السالمي، مسقط، د. ت ١ / ٣٥٢ وما بعدها؛ لوريمر ، ج . ج ، دليل الخليج، د. ط، ترجمة ونشر ديوان أمير قطر، الدوحة د.ت، القسم التاريخي ، ٢ / ٨٠٩، ٨١٨ .

٥- صلاح العقاد، التيارات السياسية في الخليج العربي، د.ط، مكتبة الأنجلو المصرية، **القاهرة**، ١٩٩٢ م، ص ٢٢٠

٦- جمال قاسم، دارسة لتاريخ الإمارات العربية ١٨٤٠ – ١٩١٤ م، ط٢ دار البحوث العلمية، الكويت، ١٩٧٤ م، ص ٣٨٥، ٣٨٦.

٧- جمال قاسم، المرجع السابق ، ص ص ٣٨٨ ، ٣٨٩.

٨- صلاح العقاد، المرجع السابق، ص ٢٢٢.

٩- قاسم، المرجع السابق، ص ٣٤٠.

١٠- حسين عبيد غباش، عُمان، ط ١، دار الجديد، بيروت، ١٩٩٧ م، ص٢٧٥.

١١- محمد عبد الله العزاوي، نشاط فرنسا السياسي في الخليج العربي والإجراءات البريطانية المضادة،١٧٩٣ ١٧٩٨، مجلة الخليج العربي، المجلد الثامن عشر، السنة الرابعة عشر، العدد ٣٤،البصرة، ١٩٨٦.، ص ٢.

* هو عبدالله بن حميد السالمي، أحمد العلماء الأباضيين في عمان، كان ضرير البصر، يُسمى (أبو التاريخ العماني، ورائد العقيدة الأباضية) له كتاب تاريخي مشهور سماه (تحفة الأعيان بسيرة أهل عمان) إضافة إلى مؤلفات أخرى أطلق عليه رئيس النهضة العمانية. للتفصيل: نور الدين السالمي، مصدر سبق ذكره، ١ / ٣ وما بعدها؛ محمد شيبة السالمي، نهضة الأعيان بحرية عمان، د.ط، دار الكتاب العربي، القاهرة، د.ت، ص ١١٨ – ١٣٤ ؛ روبرت جيران لاندن، عمان منذ ١٨٥٦ مسير ومصيرا، ط ٥، وزارة التراث القومي والثقافة في عمان، مسقط، ١٤١٥ هـ/ ١٩٩٤ م، ص ٤٨٥

١٢- حسين عبيد غباش، عُمان، ط ١، دار الجديد، بيروت، ١٩٩٧ م، ص ٢٧٦.